الوحدة الموضوعية في السورة المتعددة القضايا في التفسير الإذاعي للدكتور محمد عبدالله دراز

مقدم من الباحثة

(دعاء محمد رياض أبو زيد)

تدور فكرة هذا البحث حول إثبات وجود الوحدة الموضوعية داخل السورة المتعددة القضايا، وعمل الدكتور محمد عبد الله دراز في إثباتها من خلال التعريف بها، وبتاريخ نشأتها، ودورها وأهميتها في بيان وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، والرد على المنكرين لها، ودفع إدعائاتهم بالإدلة المنطقية والعقلية، ثم تحديده للأسس التي يتطلبها دراسة النسق القرآن لإبراز تلك الوحدة، وبيان مناهج المفسرين في التعامل مع الوحدة الموضوعية، ورد الدكتور دراز على تلك المناهج وبيان ما بها من قصور؛ ثم إبرازه لمظاهر النظام الكلي للوحدة الموضوعية في السورة الواحدة عند الدكتور دراز.

الكلمات المفتاحية:

1- التفسير الإذاعي.

2- السورة المتعددة القضايا.

3- الوحدة الموضوعية.

4- التفسير الموضوعي.

Objective unity in multi-issue sura in the media interpretation for Dr. Mohamed Abdalla Draz

Dr./ Mohamed Abdalla Draz tried to prove the existence of the objective unity inside the multi-issue sura as it is considered one phase of the Holy Quran greatness , and this was through its existence by logical and mental indication leading to cancelling all suspecting being around denying its being from one side and the orientalists argument that there is confusion and differences among the topics of the one sura depending in their claim that the Quran landed divinely in distant period, then how coherency and integration happen among topics inside the sura

Key words:

Objective unity

Quranic sura

Multi-issue sura

The media interpretation

الوحدة الموضوعية في السورة المتعددة القضايا في التفسير الإذاعي للدكتور محمد عبدالله دراز

مقدم من الباحثة

(دعاء محمد رياض أبو زيد)

المقدمة

إن الحمد لله، نستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له من دون الله وليا مرشدا، وأشهد أن لا إلله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، اللهم صَل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد.

فهذا بحث عن منهج الدكتور محمد عبد الله دراز في تفسيره الإذاعي، وما يحمله هذا المنهج من خصائص تبرز رؤية الدكتور دراز في تفسير القرآن، التي تتميز بعمق فكره وقدرته الإبداعية والتجديدية، وتميز نظرته لكتاب الله ، وقدرته على بيان ما يحويه من هداية، وكان من أبرز خصائص منهجه والتي دارت حولها هذه الدراسة إثبات الدكتور دراز للوحدة الموضوعية داخل السورة المتعددة القضايا من خلال التطبيق العملي على سور القرآن.

وكان من أسباب اهتمام الدكتور دراز بتلك الخصيصة، أنها تلعب دورا جوهريا في إثبات وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهي الأنسب في إبراز مقاصد القرآن الهدائية في ذلك العصر الذي أصبح له طبيعة تجعل الناس لا ينجذبون إلي الطريقة التقليدية الحرفية والجزئية في التفسير، إضافة على ذلك هو قناعة الدكتور دراز بأن إصلاح المجتمعات يبدأ ببناء العقول واستنهاضها، ولا يحدث ذلك إلا بمحاولة تفسير كتاب الله الذي يوضح للناس أمور دينهم، وأنه يحمل بين طياته سر سعادتهم، فعمل على ذلك.

ومما دفع الباحثة لاختيار تلك الفكرة البحثية:

أولا: كونها تعمل على إثبات وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وتدفع الشبهات التي يحيكها المستشرقون عن إثبات أن القرآن نزل منجما مما أدى إلي جمعه بين المعاني المتنافرة والمشتتة داخل السورة الواحدة.

ثانيا: أهميتها من حيث كونها استكمالًا علميًا لما بدأه الدكتور دراز في كتابه النبأ العظيم ومدخل إلى القرآن الكريم عن منهجه في التفسير فما حواه هذان الكتابان يعد بناءً نظريًا عن الوحدة الموضوعية داخل السورة القرآنية، مع تطبيق مقتصر على سورتين فقط من سور القرآن، هما: (سورة الفاتحة و البقرة)، ومن خلال هذين الكتابيين كان يحكم على منهج الدكتور دراز؛ مما أدى ذلك بدوره إلى تصنيفه في رتبة ومستوى أقل من حقه ولايعبر إطلاقا عن حقيقة منهجه ولا مكانته الحقيقية والتي أثبتنا ـ بفضل الله ـ أنه هو المؤسس النظري والمطبق المنهجي عبر قواعد علمية محكمة لتلك الفكرة.ومن خلال حصول الباحثة على تفسيره الذي ألقاه بإذاعة القرآن الكريم في برنامج "مقدمات التلاوة" أصبح لدينا بفضل الله المنهج التطبيقي المكمل للمنهج النظري، فأصبح هناك رؤية كاملة عن منهج الدكتور دراز ومن خلالها يمكن الحكم عليه.

أما منهجي في البحث فقد كان المنهج الوصفي الذي يصف جهد الدكتور دراز في تفسيره، وتحليل آرائه.

وقد احتوي البحث على عدة أفكار رئيسية:

1- **تعريف الوحدة الموضوعية عند الباحثين.**

2- **تعريف الدكتور دراز للوحدة الموضوعية، وأسباب اهتمامه بها.**

3- **أسباب إنكار العلماء للوحدة الموضوعية، والرد عليهم بالأدلة من خلال رؤية الدكتور دراز.**

4- **الأسس النظرية التي يجب اتباعها عند دراسة النسق القرآني من خلال رؤية الدكتور دراز، وبيان مناهج المفسرين في التعامل مع الوحدة الموضوعية.**

وبيان مظاهر النظام الكلي للوحدة الموضوعية داخل السور الواحدة عند الدكتور دراز.

أولا: تعريف الوحدة الموضوعية:

تنقسم الوحدة الموضوعية إلى قسمين: الوحدة الموضوعية في القرآن بوصفه كلاً، والوحدة الموضوعية داخل السورة الواحدة.

وعند استقراء جهود العلماء حول تحديد تعريف الوحدة الموضوعية نلاحظ قلة التعريفات التي حددت ذلك المفهوم، وأغلب التعريفات التي أقرها الباحثون والمفسرون تصب في وصف عمل الوحدة الموضوعية وفعلها وهدفها وفائدتها، والغرض منها والنتائج المترتبة على إبرازها.

ويجب التأكيد على أن تعريفات الباحثين أحيانا نجدها صحيحة في التعبير النظري عن الوحدة الموضوعية مع وجود تناقض أو نقص وعدم تمكن عند التطبيق العملي على سور القرآن، وسيتضح ذلك فيما بعد عند الحديث عن نشأتها في العصر الحديث.

ويجب التأكيد أيضا على أن هناك من الباحثين من يخلط بين تعريف الوحدة الموضوعية وعملها وبين تعريف التفسير الموضوعي؛ يقول الدكتور عبد الغفار عبد الرحيم: "وإذن تكون الوحدة الموضوعية أو التفسير الموضوعي كل بمعنى واحد يهدف إلى غاية واحدة كما حددها الدكتور محمد البهي بقوله: "والتفسير الموضوعي ليس تفسير جملة من الآيات.. ولا استخلاص مضمونها في وحدة قرآنية واحدة، وإنما هو استخلاص مضمون الكتاب ككل من نظرة موضوعية شاملة مرة... أو استخلاص موضوع محدد كمنهج القرآن في تطوير المجتمع أو.... استخلاص هدف السورة الواحدة وما عنيت بإبرازه في إطار الدعوة كلها مرة ثالثة"[1].

[1]) الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير، د. عبد الغفار عبد الرحيم –226– دار نشر الحلبي، لا يوجد تاريخ طبع.

فعرفت الوحدة الموضوعية بوصفها مركبا بأنها "اتحاد الموضوع الذي ذكر متناثراً، وأنه لا تباين فيه ولا اختلاف، بل يؤلف وحدة موضوعية له كاملة، كما تقول بعبارة أخرى: وحدة الموضوع"[2].

وعرف الدكتور محمد حجازي الوحدة الموضوعية في القرآن بأنها "البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة، ليظهر ما فيها من معان خاصة تتعلق بالموضوع العام الذي نبحثه، لنحقق الهدف".[3]

ومن خلال تعريف الدكتور حجازي نستنتج أنه يعمل على بيان الوحدة الموضوعية في القرآنبوصفه كلا وليس النوع الثاني، وهو بيان الوحدة الموضوعية داخل السورة، مع العلم بقناعته بوجود وحدة موضوعية داخل السورة الواحدة، بدليل قوله: "كل سورة لها هدف وغرض تسعى إلى تحقيقه، وتسلك في سبيل ذلك مسلكا خاصا، فتطرق عدة معان تأخذ من كل ما يناسبها، وكل سورة تكون وحدة كاملة مترابطة الأجزاء؛ ولهذا سميت سورة"([1]).

وقوله: "1. السورة الواحدة وحدة كاملة لها هدف واحد قد يستتبع أغراضًا مختلفة غالبًا.

2. السورة الواحدة لها طابع خاص في اللفظ والسياق والفواصل وختام الآيات، ولها في الوصول إلى هدفها طرق خاصة.

3. كل موضوع ذكر في السورة سواء كان قصة أو غيرها فهو مناسب كل المناسبة للسورة ولا بد منه.

4. إذا كرر الموضوع الواحد فهو في كل سورة يناسبها شكلًا وموضوعًا"[1].

إلا أنه في النهاية عندما جاء وقت التطبيق، عمل على بيان وحدة الموضوع بالقرآن وليس السورة.

---

[2]) الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ، محمد محمود حجازي –29\دار التفسير للنشر\ط 2، 2004م.

[3]) المرجع السابق.

[1]) الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ، محمد محمود حجازي –45 –46.

([1]) الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ، محمد محمود حجازي – 47.

وعرفت الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية بأنها "التفسير الذي يتوجه فيه المفسر إلى الكشف عن الموضوع الذي تعالجه السورة في ضوء معطيات آياتها المحكمة النسج والارتباط بأسلوبها المتميز وخصائصها المعجزة، بلوغًا إلى مقاصدها الهدائية"[2].

وهناك من انتقد هذا التعريف من الباحثين بقوله: "إن الوحدة الموضوعية ليست تفسيرا، وإنما هي مقصد وغاية يسعى الباحث إلى تحقيقه، والكشف عن جماله وسحر بيانه، وذلك بإحاطة السورة بنظرة شمولية"[3].

وتتفق الباحثة مع هذا النقد، إلا أنه عندما أكمل الباحث نقده قال: "على أن الفصل في التعريف بين شقي التفسير الموضوعي يوحي بشيء من التغاير بينهما، وهو ليس واقعًا إلا في مستوى الدراسة ونطاقها؛ لأن الموضوع هو القاسم المشترك بين التعريفين"[4].

وترد الباحثة على قوله هذا بأنه بالفعل يوجد تغاير بين شقي التفسير الموضوعي، فتتبع أحد الموضوعات في القرآن بوصفه كلاً وجمع آياته المتناثرة والربط بينها وصولا إلى مقاصده الهدائية، يختلف عن طريقة التفسير الموضوعي داخل السورة الواحدة؛ لاختلاف طبيعة السورة المتعددة القضايا المختلفة المعاني، والتي لا نستطيع الوصول فيها لبيان الموضوع العام الذي تتناوله إلا من خلال النظرة الشمولية والكلية لكل قضاياها وإبراز الوحدة الموضوعية بداخلها والتي ينبثق عنها التفسير الموضوعي.

ويمكن الرد على كلام الباحث من ناحية أخرى وهي أن الأساس في العلوم انسجام التعريف النظري مع التطبيق العملي، فكيف يكون التعريف النظري مغايرا للتطبيق العملي؟ أليس التطبيق العملي ما هو إلا تنفيذٌ للقواعد التي أقرها التحديد النظري؟

وقد عرفت الوحدة الموضوعية بأنها "تعني التماسك العضوي والترابط الفني الدقيق، وهو أن يكون العمل الفني متماسكا إلى أبعد درجات التماسك، بحيث إن كل جزئية تفضي إلى التي تليها، ولا يمكن حذف جزئية واحدة؛ لأن العمل الفني لا يستغني

(2) التفسير الموضوعي في كفتي الميزان، عبد الجليل عبد الرحيم ـــ34 \دار النشر عمان، ط1992.
(3) التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه، د: زياد الغاميين ـــ22، دار عمار، الطبعة الأولي2007.
(4) المرجع السابق.

عنها، أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها، وينبغي أن نقرر ابتداًء أن القرآن الكريم يجمع أحسن ما يكون الجمع بين الناحيتين الفنية والدينية، وأن الناحية الفنية دائما وسيلة للناحية الدينية، ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى"[1].

وهناك ملحظ هام يجب التنويه عنه وهو اللبس الواضح بين تحديد مصطلح التفسير الموضوعي وأنواعه، ومصطلح الوحدة الموضوعية ونوعيها، وبين منهجية البحث في التفسير الموضوعي ومنهجية البحث في الوحدة الموضوعية.

فالتفسير الموضوعي هو المرحلة الثانية من تحقيق الوحدة الموضوعية في القرآن بوصفه كلآ أو في السورة الواحدة، وتنبثق فكرته من مفهوم الوحدة الموضوعية، والوحدة الموضوعية في القرآن بوصفه كلآ أو في السورة الواحدة. تعد الضابط والخطوة الأولى التي ينبثق من خلالها تحديد الموضوعات وصناعة الروابط والصلات التي يؤسس عليها بناء الموضوعات، فيتحقق من هذه الخطوات المنهجية القول بالتفسير الموضوعي.

وقد اختلفت مشارب العلماء حول مصطلح الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، ولكن لا مشاحة في الاصطلاح ما دام الهدف واحدا.

فمنهم من عرفها (بالوحدة القرآنية) كالدكتور سعيد حوى في تفسيره؛ يقول: "وهذا المصنف التفسيري غني عن القول بأن فيه من الجديد الكثير، فإنه قد تفرد بأشياء لم يسبق إليها، خاصة مسألة تقديم أول نظرية متكاملة عن الوحدة القرآنية في القرآن الكريم، كما أنه استفاد من القديم وأعمل فيه بعض التهذيب بما يناسب حاجة عصرنا، فلكل عصر حاجته ومشاكله التي يواجهها. ولن أطيل الحديث عن هذا التفسير، وأترك الحكم للقارئ الكريم ولأولي العلم بخاصة"[1]. وقال أيضا: "إن الخاصية الأولى لهذا التفسير وقد تكون ميزته الرئيسية أنه قدم لأول مرة– فيما أعلم– نظرية جديدة في موضوع الوحدة القرآنية، وهو موضوع حاوله كثيرون وألفوا فيه الكتب ووصلوا فيه إلى أشياء كثيرة، ولكن

(1) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، محمد حسن باجوده –25\نشر عام 1983م.(موقع مكتبة الملك فهد الوطنية)

(1) تفسير الأساس ، سعيد حوى –6، دار السلام – القاهرة، ط السادسة- 1424 هـ.

أكثر ما اشتغلوا فيه كان يدور إما حول مناسبة الآية في السورة الواحدة، أو مناسبة آخر السورة السابقة لبداية السورة اللاحقة، ولم يزيدوا على ذلك– فيما أعلم– هذا مع ملاحظة أن الموضوع الأول نادرا من استوعبه والتزم به في تفسير كامل للقرآن، وإذا التزم به فلم يكن ذلك على ضوء نظرية شاملة تحتوي مفاتيح الوحدة القرآنية"[2].

وعرفها الأستاذ سيد قطب (بشخصية السورة) يقول في تفسيره لسورة الأنعام: "هذه السورة – وهي أولى السور المكية التي نتعرض لها هنا في سياق هذه الظلال – نموذج كامل للقرآن المكي الذي تحدثنا عن طبيعته وخصائصه ومنهجه في الصفحات السابقة، وهي تمثل طبيعة هذا القرآن وخصائصه ومنهجه، في موضوعها الأساسي، وفي منهج التناول، وفي طريقة العرض سواء.. ذلك مع احتفاظها «بشخصيتها» الخاصة وفق الظاهرة الملحوظة في كل سور القرآن والتي لا تخطئها الملاحظة البصيرة في أية سورة.. فلكل سورة شخصيتها، وملامحها، ومحورها، وطريقة عرضها لموضوعها الرئيسي والمؤثرات الموحية المصاحبة للعرض والصور والظلال والجو الذي يظللها والعبارات الخاصة التي تتكرر فيها وتكون أشبه باللوازم المطردة فيها... حتى وهي تتناول موضوعًا واحدًا أو موضوعات متقاربة. فليس الموضوع هو الذي يرسم شخصية السورة، ولكنه هذه الملامح والسمات الخاصة بها! وهذه السورة– مع ذلك– تعالج موضوعها الأساسي بصورة فريدة.. إنها في كل لمحة منها وفي كل موقف، وفي كل مشهد، تمثل «الروعة الباهرة»"[3].

وعرفها الرافعي (بروح التركيب)؛ يقول في كتابه إعجاز القرآن: "إن طريقة نظم القرآن تجري على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبارٍ من أصواتها ومخارجها، وفي التمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتِها، ثم الافتنان فيه بوضعها من الكلام، وباستقصاء أجزاء البيان وترتيب طبقاته على حسب مواقع الكلمات، لا يتفاوت ذلك ولا يختل،..... وهذه الروح التي أومأنا إليها، (روح التركيب)، لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن،

(2) المرجع السابق –21.
(3) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج1015/2سورة الأنعام \ دار الشروق - بيروت- ط: السابعة عشر - 1412 هـ

وبها انفرد نظمه وخرج مما يطيقه الناس؛ ولولاها لم يكن بحيث هو كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، إذ تراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها، ثم إلى تأليف هذاالنظم، فمن هنا تعلق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة؛ هي صفة إعجازه في جملة التركيب كما عرفت، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التي يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحي العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب؛ كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال، إلى نحوها مما يدور عليه.

ولولا تلك الروح لخرج أجزاء متفاوتة، على مقدار ما بين هذه المعاني ومواقعها في النفوس؛ وعلى مقدار ما بين الألفاظ والأساليب التي تؤديها حقيقة ومجازاً كما تعرفه من كلام البلغاء عند تباين الوجوه التي يتصرف فيها، على أنهم قد رفهوا عن أنفسهم وكفوها أكبر المؤنة، فلا يألون أن يتوخوا بكلامهم إلى أغراض ومعان يعذب فيها الكلام ويتسق القول وتحسن الصنعة، مما يكون أكبر حسنه في مادته اللغوية، وذلك شائع مستفيض في مأثور الكلام عنهم، ثم هم مع هذا يستوفون المعنى الواحد على وجهه، فإذا تحولوا إلى غيره، وأفضوا بالكلام إلى سواه رأيت من اقتضابهم في الأسلوب ومن التذاكر في وضع المعنى إلى المعنى ما يشبه في اثنين متقابلين من الناس منظر قفا إلى وجه"[1].

وعرفها مالك بن نبي (بالوحدة الكمية) وكان مقصد الأستاذ مالك من استخدام هذا المصطلح إثبات وجود وحدة في كل نجم منزل، سواء كان هذا النجم يحمل آية واحدة أو مجموعة من الآيات أو سورة كاملة، وأعجب من ذلك هو وضع هذا النجم في موضعه الترتيبي بين آيات القرآن وسوره وعلاقته بما قبله وبما بعده، ليثبت من خلال هذه الوحدة الكمية حقيقة مصدر الوحي؛ يقول في كتابه الظاهرة القرآنية تحت عنوان الوحدة الكمية: "الوحي ظاهرة منجمة، فهو في أساسه متفاصل، شأن مجموعة عددية، أي أنه متكون من وحدات متتالية هي الآيات، وهذه الخاصة توحي إلينا بفكرة الوحدة الكمية..... هذه

(1) إعجاز القرآن ، الرافعي –167، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ،ط الثامنة - 2005 م.

الوحدة تؤدي بالضرورة فكرة واحدة، وأحيانا مجموعة من الفكر المنتظمة في أسلوب منطقي يمكننا ملاحظته في آيات القرآن، ودراسة هذه الفكرة في ذاتها وفي علاقتها ببقية حلقات السلسلة تكشف عن قدرة خالقه ومنظمه، لا يمكن أن تنطوي عليه الذات المحمدية...." [1].

وعرفها الدكتور طه جابر العلواني (بالوحدة البنائية) فيقول: "القرآن يضم منهجية كونية" وأنه بذلك يتميز "بوحدة بنائية" في كل آياته وفي سوره كافة، وهذه الوحدة تجعل من المحال أن يقع في القرآن أي تضارب أو اختلاف أو نسخ أو تعارض، وأن كلماته، بل وحروفه لا يمكن أن تكون ميدانا للتأويلات الشاذة المتضاربة إذا تُلي حق تلاوته، فمفرداته منضبطة في دلالتها انضباط النجوم في مواقعها من السماء"[2].

ثانيًا: تعريف الدكتور دراز للوحدة الموضوعية، وأسباب اهتمامه بها.

أولا: تعريف الوحدة الموضوعية عند الدكتور دراز.

قام تعريف الوحدة الموضوعية للدكتور دراز على بيان دورها وقيمتها، فيراها أنها زينة الثروة المعنوية وجمالها، وأن عملها في السورة هو بيان" تناسق أوضاعها وائتلاف عناصرها وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها"[3].

فيقول في بيان الوحدة الموضوعية بسورة البقرة: "إنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضًا واحدًا نرسم به خط سيرها إلى غايتها، وتبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها، لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى"[4].

---

(1) الظاهرة القرآنية ، مالك بن نبي –182 ـــ 183 ، ط دار الفكر\ط العاشرة 2012م. ترجمة عبد الصبور شاهين.

(2) معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني ، 86 ـــ87\دار السلام\ط الأولى 2010م.

(3) النبأ العظيم، د. محمد عبدالله دراز – 176 ، ط10–2008 م، دار القلم ، ت. أحمد مصطفى فضلية.

(4) المصدر السابق –192.

فالمفسر يريد أن يبرز من خلال تعريفه للوحدة الموضوعية مدي تماسك سور القرآن والتحامها وائتلافها وخاصة السورة متعددة القضايا، فيقول عند عرضه لسورة البقرة بوصفه نموذجا تطبيقيا على وجود الوحدة في السورة متعددة القضايا: "وأما إن أحببت أن نريك نموذجًا من السور المتجمعة كيف التأمت منها سلسلة واحدة من الفكر تتلاحق فيها الفصول والحلقات، ونسق واحد من البيان تتعانق فيه الجمل والكلمات، فأي شيء أكبر شهادة وأصدق مثالًا من سورة نعرضها عليك هي أطول سور القرآن كافة، وهي أكثرها جمعًا للمعاني المختلفة، وهي أكثرها في التنزيل نجومًا، وهي أبعدها في هذا التنجيم تراخيًا، تلك هي سورة البقرة التي جمعت بضعًا وثمانين ومائتي آية، وحوت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفًا وثمانين نجمًا، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عددًا"[1].

فالدكتور دراز يرى أن الوحدة الموضوعية متحققة في القرآن كله بجميع سوره، ومتحققة في كل سورة على حدة، ومتحققة في علاقة السورة بتاليتها، بل الأكثر من ذلك فالدكتور دراز يراها متحققة في قطعة قطعة منه، فيقول: "اعلم أنه ليس من همنا الآن أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية التي تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض، فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير؛ ذلك ولو نشاء لأريناك في القطعة الواحدة منها أسبابًا ممدودة عن أيمانها وعن شمائلها تمتُّ بها إلى الجار ذي القربى والجار الجنب، في شبكة من العلائق يحار الناظر إلى خيوطها مع أيها يتجه؟ لا يدري أيها هو الذي قصد بالقصد الأول"[2].

ثم أخذ الدكتور دراز يؤصل إلى الفكرة، فبدأ أولا ببيان الفارق بين طبيعة الكلام الواحد، ومدى ما يحتاجه من المهارة والبراعة والحذق ليخرج مؤتلفًا متلاحمًا محكمًا، وأن أي خطأ فيه يخرجه ضعيفًا مهلهلًا؛ يقول الدكتور دراز: "وأنت قد تعرف أن الكلام في الشأن الواحد إذا ساء نظمه انحلت وحدة معناه، فتفرق من أجزائها ما كان مجتمعًا،

(1) النبأ العظيم، د. محمد عبدالله دراز– 192.
(2) المصدر السابق – 191–192.

وانفصل ما كان متصلًا؛ كما تتبدد الصورة الواحدة على المرآة إذا لم يكن سطحها مستويًا، أليس الكلام هو مرآة المعنى؟ فلا بد إذًا لإبراز تلك الوحدة الطبيعية "المعنوية" من إحكام هذه الوحدة الفنية "البيانية"؛ وذلك بتمام التقريب بين أجزاء البيان والتأليف بين عناصره، حتى تتماسك وتتعانق أشد التماسك والتعانق. ليس ذلك بالأمر الهين كما قد يظنه الجاهل بهذه الصناعة؛ بل هو مطلب كبير ، يحتاج مهارة وحذقًا ولطف حس في اختيار أحسن المواقع لتلك الأجزاء: أيها أحق أن يجعل أصلًا أو تكميلًا، وأيها أحق أن يبدأ به أو يختم أو يتبوأ مكانًا وسطًا؟ "ثم يحتاج" مثل ذلك في اختيار أحسن الطرق لمزجها بالإسناد، أو بالتعليق، أو بالعطف، أو بغيرها، هذا كله بعد التلطف في اختيار تلك الأجزاء أنفسها، والاطمئنان على صلة كل منها بروح المعنى، وأنها نقية من الحشو، قليلة الاستطراد، وأن أطرافها وأوساطها تستوي في تراميها إلى الغرض، ويستوي هو في استهدافه لها كما تستوي أبعاد نقط الدائرة بالقياس إلى المركز، ويستوي هو بالقياس إلى كل منها، تلك حال المعنى الواحد الذي تتصل أجزاؤه فيما بينها اتصالًا طبيعيًّا"[1].

فما بالنا بالكلام المختلف، بل ما بالنا بكلام ليس مختلف فقط في أغراضه بل في ظروف تنزيله وتجميعه، فأخذ الدكتور دراز يبين عظمة وإعجاز القرآن في جمعه بين تلك الأغراض المختلفة، مقارنة بين عمل الشعراء في جمعهم بين الأغراض المختلفة في الشعر وكيفية التخلص من غرض إلى الآخر لتحقيق الانسجام والتلاحم الذي في كثير من الأحيان لا يوفقون في تحقيق التخلص بين تلك الأغراض، فيقول: "فما ظنك بالمعاني المختلفة في جوهرها، المنفصلة بطبيعتها؟ كم من المهارة والحذق، بل كم من الاقتدار السحري يتطلبه التأليف بين أمزجتها الغريبة واتجاهاتها المتشعبة؟ حتى لا يكون الجمع بينها في الحديث كالجمع بين القلم والحذاء، والمنشار والماء؛ بل حتى يكون لها مزاج واحد واتجاه واحد، وحتى يكون عن وحداتها الصغرى وحدة جامعة أخرى.إنه من أجل عزة هذا المطلب نرى البلغاء وإن أحسنوا وأجادوا إلى حد ما في غرض غرض، كان منهم

(1) النبأ العظيم ، د. محمد عبدالله دراز، 176 – 177.

الخطأ والإساءة في نظم تلك الأغراض كلًّا أو جلًّا، "فالشعراء" حينما يجيئون في القصيدة الواحدة بمعان عدة، أكثر ما يجيئون بها أشتاتًا لا يلوي بعضها على بعض، وقليلًا ما يهتدون إلى حسن التخلص من الغرض إلى الغرض، كما في الانتقال من النسيب إلى المدح.. "والكُتاب" ربما استعانوا على سد تلك الثغرات باستعمال أدوات التنبيه أو الحديث عن النفس؛ كقولهم: ألا وإن – هذا ولكن – بقي علينا – نعود – ولننتقل – قلنا – وسنقول...هذا شأن الأغراض المختلفة إذا تناولها الكلام الواحد في المجلس الواحد، فكيف لو قد جيء بها في ظروف مختلفة وأزمان متطاولة؟ ألا تكون الصلة فيها أشد انقطاعًا، والهوة بينها أعظم اتساعًا؟ فإن كنت قد أعجبك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة منه، حيث الموضوع واحد بطبيعته، فهلمَّ إلى النظر إلى السورة منه حيث الموضوعات شتى والظروف متفاوتة، لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز.

ألست تعلم أن ما امتاز به أسلوب القرآن من اجتناب سبيل الإطالة والتزام جانب الإيجاز – بقدر ما يتسع له جمال اللغة – قد جعله هو أكثر الكلام افتنانًا، نعني أكثره تناولًا لشئون القول وأسرعه تنقلًا بينها، من وصف، إلى قصص، إلى تشريع، إلى جدل، إلى ضروب شتى، بل جعل الفن الواحد منه يتشعب إلى فنون، والشأن الواحد فيه تنطوي تحته شئون وشئون.." [1].

وأكد دراز على أن موضوعات السورة الواحدة، وإن كانت تتميز بتنوعها واختلافها من ناحية مضمونها، فإن الموضوع الواحد قد يتكرر في السورة الواحدة ولكن مع اختلاف في الأسلوب، ومع ذلك ما نجد إلا تنوعا واختلافا ناتجا عنه جمال وافتتان وتناسق وائتلاف، فيقول الدكور دراز: "والأعجب أنه مع كونه أكثر الكلام افتنانًا وتنويعًا في الموضوعات، هو أكثره افتنانًا وتلوينًا في الأسلوب في الموضوع الواحد، فهو لا يستمر طويلًا على نمط واحد من التعبير، كما أنه لا يستمر طويلًا على هدف واحد من المعاني، ألا تراه كما يتنقل في السورة الواحدة من معنى إلى معنى يتنقل في المعنى

(1) النبأ العظيم ، د. محمد عبدالله دراز –177.

الواحد بين إنشاء وإخبار، وإظهار وإضمار، واسمية وفعلية، ومضي وحضور، واستقبال وتكلم، وغيبية وخطاب؛ إلى غير ذلك من طرق الأداء، على نحو من السرعة لا عهد لك بمثله ولا بما يقرب منه في كلام غيره قط. ومع هذه التحولات السريعة المستمرة التي هي مظنة الاختلاج والاضطراب، بل مظنة الكبوة والعثار، في داخل الموضوع أو في الخروج منه، تراه لا يضطرب ولا يتعثر، بل يحتفظ بتلك الطبقة العليا من متانة النظم وجود السبك حتى يصوغ من هذه الأفانين الكثيرة منظرًا مؤتلفًا. فأي امرئ حسن العربية وينظر في نظم القرآن هذه النظرة ثم لا يرى فيه من أثر القدرة الباهرة سرًّا من أسرار التحدي والإعجاز ؟!"[2].

فالدكتور دراز مؤمن بفكرة الوحدة الموضوعية في السورة، ولديه القدرة على تطبيقها وإبرازها، وأراد أن يأصل فكرتها داخل عقول المهتمين بالدراسات القرآنية ونفوسهم، مما يوضح مدى اهتمامه بالفكرة وقناعته بها، يقول الدكتور عبد الله شحاته: " كان أستاذنا المرحوم محمد عبد الله دراز يفتح عيوننا أثناء الدراسة الجامعية على موضوع السورة وفكرتها العامة، ويعرض موضوعاتها في سلك واحد كأنها حبات عقد مكتمل أحكمته يد السميع العليم، القائل في كتابه الكريم: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هود: 1]" [1].

ثانيا: أسباب اهتمام الدكتور دراز بقضية الوحدة الموضوعية داخل السورة المتعددة القضايا.

يرجع اهتمام الدكتور دراز بقضية الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم لكونها وجهًا من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وقد برهن الدكتور دراز على وجود وحدة السورة من خلال عدة محاور، وهي:

المحور الأول: ظروف وملابسات نزول الوحي (طريقة نزوله).

(2) هامش النبأ العظيم، د. محمد عبدالله دراز –176 .

(1) مقال الوحدة الموضوعية في سور القرآن عبد الله شحاته ،مجلة الوعي الإسلامي السنة الثامنة عشر ربيع الاول 1402 العدد 207–43.

المحور الثاني: المنشأ الحقيقي لتكوين السورة القرآنية.

المحور الثالث: انفراد كتاب الله عن غيره من الكتب في طريقة جمعه.

المحور الرابع: الوحدة الموضوعية نشأة إلهية.

المحور الخامس: التخطيط المزدوج للسورة القرآنية.

أولا: يرى الدكتور دراز أن سور القرأن قد تكونت في ظروف عجيبة، وهذه الظروف بطبيعتها تتنافى مع النتيجة الواقعية المتواجدة أمامنا الآن (وهي السورة القرآنية المتصفة بالتلاحم والتماسك والانسجام في موضوعاتها، وهنا يكمن الإعجاز؛ يقول الدكتور دراز: "فإذا أخذنا في اعتبارنا التواريخ التي لا حصر لها والتفتيت المتناهي في نزول الآيات، ولاحظنا بوجه عام أن هذا الوحي كان بوجه عام مرتبطا بظروف ومناسبات خاصة، فإن ذلك يدعونا إلى التساؤل عن الوقت الذي تمت فيه عملية تنظيم كل سورة على شكل وحدة مستقلة، وهذا التساؤل يضعنا أمام نقطة محيرة، فسواء افترضنا أن هذا الترتيب كان قبل أو بعد اكتمال نزول القرآن، فقد كان ينبغي أن يتبع إما الترتيب التاريخي للنزول، وإما الترتيب المنطقي البسيط المبني على تجانس الموضوعات، إلا أن السور القرآنية تتنوع موضوعاتها ولا تخضع لأي من الفرضين أو الترتيبين السابقين، مما يدعونا إلى ترجيح وجود تصميم معقد يكون قد وضع في وقت سابق لنزول القرآن على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن سرعان ما نميل إلى الانصراف عن هذا الافتراض بسرعة؛ لأننا نرى مدى الجرأة والاستحالة التي ينطوي عليها وضع نظام سابق حسب ترتيب تحكمي بين فقرات حديث سوف يطلب إلقاؤه أو إظهاره على مدار عشرين عاما، وبما يتناسب مع عديد من الملابسات والظروف التي تستدعي هذا الحديث والتي لا يمكن توقعها أو التنبؤ بها، غير أن السنة تؤكد لنا هذا الافتراض الغريب وتؤيده، فالواقع أنه فور نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم كان كل جزء منه صغيرا أو كبيرا يوضع في السور التي لم تكن اكتملت بعد، وفي مكان محدد من السورة، وفي موضع

رقمي من آياتها، وفي ترتيب لم يكن دائما هو الترتيب التاريخي، وبمجرد وضع الآية أو الآيات في موضع ما، بقيت فيه إلى الأبد دون أن يطرأ عليها تحويل أو تصحيح"[1].

ثانيا: المنشأ الحقيقي لتكوين السورة: فنجد الدكتور درازا يؤكد على أن تكوين نسق السورة والهيئة التي عليها ليس بالأمر الطارئ وإنما هناك خطة مسبقة لتصميم شكل سور القرآن وأماكنها وترتيب آياتها وموضوعاتها، رتبت سور القرآن بجميع ما تحمله على أساس تلك الخطة المسبقة، أو بناء على هذا التصميم القديم فيقول: "من هذا نقول إنه لا بد كان هناك تصميم لكل سورة، فضلا عن تصميم أو خطة عامة للقرآن في جملته بمقتضى كل منها، كأن كل وحي جديد يوضع في مكانه توا بين آيات هذه السورة أو تلك من السور المفتوحة"[2].

ثالثا: انفراد كتاب الله عن غيره من الكتب في طريقة جمعه: ويجب التأكيد على أن هذا المحور في حد ذاته يعد دليلا على إثبات صحة المحور الثاني، فالظروف التي تعرض لها القرآن عند تنزيله من حيث البعد الزمني بين النجوم، وتفرق نجومه وعدم تلاحمها، تجعله مختلفا عن طبيعة الكتب الوضعية المختلفة الجمع والترتيب والتأليف، وإن دل على شيء فإنما يدل على وجود بناء قديم يؤخذ منه ليبني ويعمر في مكان آخر، يقول الدكتور دراز: "ولا شك أن طريقة القرآن هذه ليست لها مثيل على الإطلاق، فلا يوجد أي كتاب من الكتب في الأدب أو في أي مجال آخر يمكن أن يكون قد تم تأليفه على هذا النحو أو في مثل هذه الظروف، وكأن القرآن كان قطعا متفرقة ومرقمة من بناء قديم كان يراد إعادة بنائه في مكان آخر على نفس هيئته السابقة، وإلا فكيف يمكن تفسير هذا الترتيب الفوري والمنهجي في آن واحد، فيما يتعلق بكثير من السور، إذا لم تكن الصحائف الخالية والصحائف التامة تمثل وحدة كاملة في نظر المؤلف"[1].

---

(1) مدخل إلي القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، - 129، ط5 – 2003م، دار القلم، ، ترجمة أ. محمد عبد العظيم على ، مراجعة وتقديم ا . د السيد محمد بدوي.

(2) المصدر السابق.

(1) مدخل إلي القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، - 129.

رابعا: الوحدة الموضوعية نشأة إلهية. فالدكتور دراز يستخلص من جميع ما سبق أن الوحدة الموضوعية نشأة إلهية، وتخطيط رباني، فيقول: "ولكن أي وضع تاريخي يستطيع أن يتحصل عليه الإنسان عند وضع مثل هذه الخطة إزاء الأحداث المستقبلة ومتطلباتها التشريعي، والحلول المنشودة لها، فضلا عن الشكل اللغوي الذي يجب أن تقدم به هذه الحلول، وتوافقها الأسلوبي مع هذه السورة بدلا من تلك؟ وكيف يمكن مجرد تجميع وتقريب هذه القطع المبعثرة بعضها من بعض بدون تعديل أو لحمات أو وصلات – رغم تنوعها الطبيعي وتفرقها التاريخي – أن يجعل منها وحدة عضوية متجانسة يتوافر فيها ما نرجوه من التماسك والجمال؟ ألا يصدر مثل هذا المشروع – وقد بلغ هذا المبلغ من الطموح – إلا عن حلم خيالي، أو عن قوة فوق قدرة البشر؟ وبمعنى آخر إذا كان الاضطراب في النظام المنطقي أو الخلل اللغوي والبلاغي هما النتيجة الحتمية لمثل هذا المشروع إذا اضطلع به إنسان؛ لما يشتمل عليه من تعقيد محير، ألا ينبغي أن نستنتج من هذه المقدمات ذاتها أن اكتمال هذه الخطة وتحقيقها بالصورة المرجوة يتطلب تدخلا من قوة عظمى، تتوفر فيها القدرة على إقامة مثل هذا التنسيق المنشود؟ وإلا فمن هو المخلوق الذي يستطيع أن يوجه الأحداث بما يتوافق تمامًا مع هذا التصميم المرسوم، أو كيف يمكن أن نخرج من مجموعة مصادفات بمثل هذا البناء الأدبي الرفيع؟"[2].

خامسا: التخطيط المزدوج للسورة القرآنية، ويراد من هذا المحور محاولة الكشف عن وجه جديد من وجوه إعجاز القرآن والذي يؤكد من خلاله وحدة السورة القرآنية من خلال التخطيط التربوي لها، لمن رفض الاقتناع بوحدتها من خلال التخطيط الأدبي والمنطقي، يقول الدكتور دراز: "أما الذين لا يهتمون بالكشف عن هذا التخطيط في السور القرآنية، فإنهم يستطيعون أن يتأملوا تخطيطًا آخر ذا طابع أسلوبي، وبمقتضاه يمكن ملاحظة أن الأجزاء التي ستتجاور مجهزة مقدما بطريقة معينة، بحيث يتزاوج بعضها مع بعض بدون تصادم أو ثغرات، كل ذلك مع تنوع الموضوعات واختلاف البعد الزمني الذي

(2) المصدر السابق –130.

يفصل بين كل موضوع وآخر، ولكن إعجابنا سيصل إلى ذروته إذا أدركنا أن هذه الأجزاء المبعثرة من الآيات القرآنية قد اتبعت في نزولها تخطيطًا آخر مختلفا تماما عن التخطيط السابق"[1]. ويقصد المفسر هنا التخطيط التربوي الذي اتبعه الوحي في جميع مراحل الدعوة، من أول كلمة {اقْرَأْ} إلى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة: 3]، من بداية الدعوة سرًا وما احتاجت إليه من تخطيط تربوي يتناسب مع المرحلة المكية وطريقة الدعوة بها، وصولا إلى الدعوة جهرا، ووصولا إلى المرحلة المدنية وما احتاجت إليه من تخطيط تربوي يتناسب مع التطورات الجديدة بالدعوة، تخطيط يتناسب مع جميع الملابسات والظروف المحيطة بالدعوة، ومراعيًا للتطورات والتغيرات النفسية لدى كل من آمن بالرسول وأصبح في صف الدعوة، يقول الدكتور دراز: "إن هذا التطور إذن كان متفقا مع خطة تربوية وتشريعية موضوعة في وقت سابق في إجمالها وفي تفصيلها، بمعرفة منزل الوحي سبحانه وتعالى، فإذا كانت هذه النصوص ذاتها التي كانت تتبع في نزولها تخطيطًا تربويا ممتازا، قد تحولت بمجرد نزولها من شكلها التاريخي لكي تتوزع وتتجمع في شكل آخر على هيئة إطارات محدودة ومختلفة الأطوال بحيث يظهر من هذا التوزيع المقصود في النهاية كتاب يقرأ، مكون من وحدات كاملة، لكل منها نظامها الأدبي والمنطقي، لا يقل روعة عن النظام التربوي العام، فهذا هو التخطيط المزدوج الذي لا يمكن أن يصدر عن علم بشر"[2].

ويؤكد كلام الدكتور دراز ما قال به محمد عبد العظيم الزرقاني: "... أن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل، كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سمط وحيد وعقد فريد يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقا لأوله، وبدا أوله مواتيا لآخره.

(1) مدخل إلي القرآن الكريم –131.
(2) المصدر السابق – 132.

وهنا نتساءل: كيف اتسق للقرآن هذا التأليف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنه لم يتنزل جملة واحدة، بل تنزل آحادا مفرقة تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عاما.

الجواب: أننا نلمح هنا سرا جديدا من أسرار الإعجاز، ونشهد سمة فذة من سمات الربوبية، ونقرأ دليلا ساطعا على مصدر القرآن وأنه كلام الواحد الديان {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: 82].

وإلا فحدثني بربك كيف تستطيع أنت؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعا أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط متين النسج والسرد متآلف البدايات والنهايات مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر وهي وقائع الزمن وأحداثه التي يجيء كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعا لها ومتحدثا عنها: سببا بعد سبب وداعية إثر داعية مع اختلاف ما بين هذه الدواعي وتغاير ما بين تلك الأسباب، ومع تراخي زمان هذا التأليف وتطاول آماد هذه النجوم إلى أكثر من عشرين عاما.

لا ريب أن هذا الانفصال الزماني وذاك الاختلاف الملحوظ بين هاتيك الدواعي يستلزمان في مجرى العادة التفكك والانحلال، ولا يدعان مجالا للارتباط والاتصال بين نجوم هذا الكلام. أما القرآن الكريم فقد خرق العادة في هذه الناحية أيضا، نزل مفرقا منجما ولكنه تم مترابطا محكما، وتفرقت نجومه تفرق الأسباب، ولكن اجتمع نظمه اجتماع شمل الأحباب، ولم يتكامل نزوله إلا بعد عشرين عاما، ولكن تكامل انسجامه بداية وختاما.

أليس ذلك برهانا ساطعا على أنه كلام خالق القوى والقدر، ومالك الأسباب والمسببات، ومدبر الخلق والكائنات، وقيوم الأرض والسماوات، العليم بما كان وما سيكون، الخبير بالزمان وما يحدث فيه من شؤون؟؟.

لاحظ فوق ما أسلفنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزلت عليه آية أو آيات قال: "ضعوها في مكان كذا من سورة كذا". وهو بشر لا يدري طبعا ما ستجيء به الأيام، ولا يعلم ما سيكون في مستقبل الزمان، ولا يدرك ما سيحدث من الدواعي

والأحداث فضلا عما سينزل من الله فيها. وهكذا يمضي العمر الطويل والرسول على هذا العهد يأتيه الوحي بالقرآن نجما بعد نجم، وإذا القرآن كله بعد هذا العمر الطويل يكمل ويتم وينتظم ويتآخى ويأتلف ويلتئم، ولا يؤخذ عليه أدنى تخاذل ولا تفاوت، بل يعجز الخلق طرا بما فيه من انسجام ووحدة وترابط: {كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}[1].

وإنه ليستبين لك سر هذا الإعجاز إذا ما علمت أن محاولة مثل هذا الاتساق والانسجام لن يمكن أن يأتي على هذا النمط الذي نزل به القرآن ولا على قريب من هذا النمط لا في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ولا كلام غيره من البلغاء"[2].

ـ أسباب إنكار العلماء للوحدة الموضوعية، والرد عليهم بالأدلة من خلال رؤية الدكتور دراز.

اختلف العلماء حول قبول ورفض فكرة الوحدة الموضوعية داخل السورة الواحدة، وهناك من الأسباب التي جعلت الرافضين يأخذون هذا الموقف منها، ومن هذه الأسباب:

1ـ رؤية الرافضين بوجود صعوبة في استخراج الموضوع العام بالسورة؛ وذلك لتعدد القضايا بالسورة الواحدة، لذلك وجدوا بعدم إمكانية أن يكون للسورة غرض واحد.

يقول الأستاذ مصطفى ناصف: "وربما يتبين لنا أن هذا التفسير الموضوعي هو التعبير الحقيقي عن فكرة الإطار العام، ولكن يمكن أن تكون السورة في حد ذاتها إطارًا عامًا، ولكن بيان وحدة الإطار في السورة أشق؛ لأن السورة ليست مبنية على موضوع واحد، وإنما تتوزع عادة بين طائفة غير قليلة من الموضوعات، ولذلك كانت الوحدة الخاصة بالسور ليست وحدة موضوع، ولكن انتفاء الوحدة عن السورة من حيث الموضوع ليس بالأمر الذي يغلق الباب إمام بحث إطار السورة"[3].

(1) سورة هود أية 1.
(2) مناهل العرفان ، الزرقاني ، 58 – 60، عيسى الحلبي \ط: الثالثة.
(3) نظرية المعنى في النقد العربي، مصطفى ناصف ، 163ـــ164\دار القلم مصر(1965م)..

ومن الذين انتقدوا القول بوجود وحدة موضوعية بالسورة، وانتقد الدكتور درازا بقوله بها . الدكتور محمد رجب البيومي، فيقول: "وقد أتاح د/ دراز بذلك لكل مبتدئ أن يعمد إلى سورة من السور الكريمة فيختار بعض عناصرها المتقاربة، ويهمل ما لا سبيل إلى انضمامه، ثم يخرج على الناس برأي يهتف بوحدة الموضوع في السورة القرآنية"[4].

وهناك من أنكر وجود الوحدة الموضوعية داخل السورة الواحدة لعدة أسباب فيقول: "وقد عد بعض العلماء في هذا النوع التفسير الموضوعي العام ما يسمى بالوحدة الموضوعية في القرآن أو في سورة منه؛ بأن يجعل للسورة الكريمة هدفا ينتزعه من ملاحظة معانيها، ثم ينزل الآيات المتعددة في السورة لتحقيق هذا الهدف، وأرى – والله أعلم – أن هذا الضرب من الدراسات لا يدخل في التفسير الموضوعي؛ لأن موضوعه وهو هدف السورة المتعددة الآيات أمر التماسي اجتهادي، تختلف فيه الأنظار، فكيف تصنف الآيات في السورة على هدف مختلف على تحديده؟ وكيف يقوم التفسير على الاحتمال؟ مع أن الأصل في التفسير الموضوعي أن يقوم على النصوص ذاتها، أو معانيها المتحققة، وإلى أن تقوم لهذا الضرب خطة علمية محكمة القواعد، واضحة المعالم، فإننا نعده في باب الدراسات القرآنية العامة، وليس في التفسير الموضوعي"[1].

فالدكتور فتح الله سعيد يرى بأن موضوع السورة ينتزع من ملاحظة معانيها انتزاعا، وأنه أمر التماسي اجتهادي، وأن تحديده صعب المنال بسبب اختلاف الأنظار في تحديده، وعدم وجود خطة علمية محكمة القواعد واضحة المعالم.

وقد لام الدكتور فتح الله عمل الدكتور دراز فيها، وأن عمله هذا يتفق مع قول الإمام الشاطبي، بخلاف قول العز بن عبد السلام الذي يرفض وجود وحدة موضوعية داخل السورة الواحدة متعددة القضايا وينكرها، فيقول" واعلم أن من الفوائد أن من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض؛ ويتشبث بعضه ببعض؛ لئلا يكون مقطعا مبترا، وهذا بشرط أن يقع الكلام في أمر متحد، فيرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة، لم

(4) البيان القرآني، محمد رجب البيومي، –195 /(1971) مجمع البحوث الإسلامية \دار النصر للطباعة \مصر.
(1) المدخل إلي التفسير الموضوعي، د. عبد الستار فتح الله سعيد ــ 24، دار القلم، ط الخامسة 2003م.

يشترط فيه ارتباط أحد الكلامين بالآخر، ومن ربط ذلك، فهو متكلف لما لم يقدر عليه إلا بربط ركيك، يصان عن مثله حسن الحديث، فضلا عن أحسنه، فإن القرآن نزل على الرسول عليه السلام في نيف وعشرين سنة، في أحكام مختلفة، شرعت لأسباب مختلفة غير مؤتلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض؛ إذ ليس يحسن أن يرتبط تصرف الإله في خلقه وأحكامه بعضه ببعض مع اختلاف العلل والأسباب"[2].

بداية يمكن الرد في عجالة على ما سبق من شبهات وانتقادات للدكتور دراز قبل أن نفصل في بيان رؤيته من تلك الشبهات.

أولا: ردا على انتقاد الدكتور رجب البيومي: يمكن القول إن عمل الدكتور دراز في بيان الوحدة الموضوعية بالسورة قائم على قواعد علمية محكمة ومنضبطة، وليس الأمر بالسهل ولا الهين الذي يصورة الدكتور البيومي، وليس من السهل على أي مبتدئ أن يحدد حتى بسهولة المقاصد العامة لها فضلًا عن تحديد المحور العام، فالنظر للسورة القرآنية يحتاج من العمق والخبرة والمهارة والفهم الثاقب ما لا يمتلكه المبتدئون، وهذا واضح من عرض المسألة ومدى صعوبتها واختلاف العلماء في تحديدها.

أما بالنسبة لما قال به الدكتور فتح الله سعيد إن النظر في السورة أمر التماسي اجتهادي، فنقول بأن علم التفسير في معظمه قائم على الاجتهاد، حتى التفسير الخاص الذي أقره الدكتور سعيد وفضله على غيره هو أيضا قائم على الاجتهاد.

أما قوله بأن هذا النوع من التفسير لا تحكمه خطة علمية محكمة، فكيف ذلك؟ وهناك العديد من جهود العلماء المتدرجة من القديم إلى العصر الحديث لإثبات تلك الفكرة والعمل عليها، وصولا للدراسات المتخصصة في تلك النقطة والتي أصبحت تؤخذ بعين الاعتبار.

وسنعرض رؤية الدكتور دراز للوحدة الموضوعية ورده على الشبهات التي أثيرت حولها قديما وحديثا، والتي سيتضح من خلالها أن عملية البحث في الوحدة الموضوعية

(2) مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، عادل بن محمد أبو العلاء –30\ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورةاط: العدد129 - 1425هـ.

عند الدكتور دراز قامت على أسس منهجية امتازت بالدقة والضبط والإحكام، مبينة لأسرار إعجاز القرآن.

فيقول: "أجل، إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعاني حشيت حشوا، وأوزاعا من المعاني جمعت عفوا، فإذا هي – لو تَدَبرَت – بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شُعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام. كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلا، والمختلف مؤتلفا، ولماذا نقول: إن هذه المعاني تنتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقى العظمان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بها عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضًا خاصًا، كما يأخذ الجسم قوامًا واحدًا، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية"[1].

ثم أخذ يبرز الأسباب والادعاءات التي عول عليها الكثيرون في رفضهم لهذه الفكرة، مقدما تصورا عقليًا يبرز فساد ادعائهم فيقول: "ينبغي أن نركز بعض الجهد على نقطة غفل عنها جميع المستشرقين فضلا عن بعض علماء المسلمين، وهي طريقة القرآن الكريم في معالجة أكثر من موضوع في السورة الواحدة، فعندما لاحظ بعضهم بنظرته

(1) النبأ العظيم ، د. محمد عبد الله دراز – 188 .

السطحية عدم توافر التجانس والربط الطبيعي بين المواد التي تتناولها السورة، لم ير القرآن في جملته إلا أشتاتا من الأفكار المتنوعة، عولجت بطريقة غير منظمة، وبدون أي ربط منطقي بينها، بينما رأى البعض الآخر أن علة هذا التشتيت المزعوم ترجع إلى الحاجة إلى تخفيف الملل الناتج من رتابة الأسلوب، والحزن المترتب على تكرار النغمة، مما يتنافى مع المثالية في الأسلوب العربي. وهناك فريق آخر لم ير في الوحدة الأدبية لكل سورة – وهو ما يستحيل نقله في أية ترجمة – إلا نوعا من التعويض لهذا النقص الجوهري في وحدة المعنى. وفريق آخر يضم غالبية المستشرقين رأي . وهو يهدف إلى تبرئة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قدم كل سورة من القرآن على شكل وحدة مستقلة . أن هذا العيب يرجع إلى الصحابة الذين جمعوا القرآن، وقاموا بهذا الخلط عندما جمعوا أجزاءه ورتبوها على شكل سور.

إن هذه التفسيرات لا تبدو صالحة للأخذ بها، إلا أن السنة والأثر الصحيح متفقان على أن السور كانت بالشكل الذي نقرأها به اليوم، وبتركيبها الحالي منذ حياة رسول الله، إذن قد يرجع السبب إلى عيب أصيل لا تكاد تجدي معه التبريرات السابقة إذا كانت حقا، وحدة السور لا تعدو أن تكون سلسلة من الحروف والصوتيات تخفي تشتيتا وتفرقا جوهريا في المعنى، وتترك فواصل لا يقبلها المنطق في مسيرة الأفكار، وتقفز قفزات مفاجئة في السور عند الانتقال من موضوع إلى موضوع جديد"[1].

ثم أخذ يستكمل في محاولة إقناعهم بفساد ادعاءاتهم بطريقة عقلية منطقية فيقول: "فعندما نريد أن نقدر جمال لوحة مرسومة، لا ينبغي أن نحصر نظرتنا في جزء ضيق منها، حيث لا نجد إلا ألوانا متنوعة تتجاور أو تتنافر أحيانا، بل يجب أن نرجع قليلا إلى الوراء، ليتسع مجال الرؤية، وتحيط بالكل في نظرة شاملة، تستطيع وحدها أن تلاحظ التناسق بين الأجزاء والتوافق في التركيب، فبمثل هذه النظرة ينبغي دراسة كل سورة من سور القرآن لنقدر أبعادها الحقيقية".

(1) مدخل إلي القرآن الكريم، د . محمد عبدالله دراز –127.

ثم استكمل حديثه أن الأمر عنده لم يقف على حد التنظير للمسألة، بل انتقل للتطبيق ورأى الحقيقة بعين اليقين، وهي وجود وحدة موضوعية بداخل السور المتعددة القضايا فيقول: "ولقد قمنا في الماضي أثناء تدريسنا بجامعة الأزهر بتطبيق هذه القاعدة في دراسة لإحدى السور المدنية (هي سورة البقرة) ولسورتين مكيتين (هما سورتا يونس وهود) ولم يكن اختيارنا لهذه السور عن قصد، وإنما كانت كلها مقررة في البرنامج الدراسي، فالواقع أننا وجدنا أكثر مما كنا نتطلب من بحثنا، فقد كنا نبحث عما إذا كان هناك نوع من الترابط في الأفكار التي تتناولها السورة الواحدة، ولقد وضح لنا بما يثير دهشتنا أن هناك تخطيطا حقيقيا واضحا ومحددا يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة. فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة الموضوع الذي ستعالجه في خطوطه الرئيسية، ثم يتبع ذلك التدرج في عرض الموضوع بنظام لا يتداخل فيه جزء مع جزء آخر، وإنما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة، وأخيرا تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة"[2].

وبعد عرض رؤية الدكتور دراز عن الوحدة الموضوعية يتضح لدينا مدى عمق التصور الفني عنده لفكرته ورؤيته المتكاملة عنها.

وفي النهاية يجب التأكيد على أن كل الادعاءات التي تدور حول إنكار وجود وحدة موضوعية داخل السورة، لا تعدو جميعها أن تكون وجهات نظر قابلة للأخذ والرد، وذلك راجع إلى المراحل التي تمر بالفكرة ومحاولة الوصول بها إلى درجة النضج والاكتمال. فالتوصل إلى تلك الوحدة ليس بالأمر المستحيل، بدليل تضافر جهود العلماء قديمًا وصولًا للعصر الحديث، ولعل السبب يرجع إلى أن جميع محاولات التطبيق المنهجي على السور مجرد محاولات واجتهادات فردية من العلماء والباحثين في مجال التفسير دون أن يكون هناك محاولة لوضع أسس نظرية ومنهجية وقواعد فكرية متفق عليها ينطلق منها المفسرون والباحثون.

(2) المصدر السابق - 128.

ولكن بعد محاولة الدكتور دراز في إبراز فكرته بوضع أسس نظرية ونماذج تطبيقية لبيان صحة رؤيته بوجود وحدة موضوعية داخل السورة الواحدة من خلال كتابيه النبأ العظيم، ومدخل إلى القرآن الكريم، ثم تفسيره الإذاعي والذي اتضح من خلاله منهجه في تطبيق الوحدة الموضوعية داخل السورة – ترى الباحثة بنضج الفكرة واكتمالها عند الدكتور دراز.

ومن خلال الأسس التي تحدث عنها الدكتور دراز وملامح نظرته ونظريته للوحدة الموضوعية داخل السورة، يتضح أن هناك خطة محكمة وجهودا حثيثة في هذا المجال، وأن البحث عن ذلك النوع من الوحدة يعد من أدقها وأعظمها؛ لأن النتائج التي نتحصل عليها من وراء ذلك البحث تصب في صلب إعجاز القرآن وإثبات حقيقة مصدره.

لكننا لا يجب أن نغفل تأكيد ه بوجود صعوبة فعلية في الوصول إلى تلك الوحدة التي بالسورة، وأن العمل على إبرازها ليس بالأمر السهل أو الواضح يقول: "والواقع أنه قد يصعب في بعض السور التمييز بين الفكرة الرئيسية والأفكار الثانوية، أو اكتشاف العلاقة بين هذه الأفكار بعضها وبعض أو بينها وبين النواة المركزية للسورة، وقد نجهل حتى الظروف التي استدعت التجميع بينها في سورة واحدة. ومن المفهوم أن تركيز عبارات القرآن الكريم وجزالة معناها قد تترك بين كل جزء وآخر نقاطا للوصل وعديدا من الخيوط الإرشادية، مما جعل المفسرين يختلفون في الربط بين هذه الاجزاء"[1].

ـ الأسس النظرية التي يجب اتباعها عند دراسة النسق القرآني من خلال رؤية الدكتور دراز، وبيان مناهج المفسرين في التعامل مع الوحدة الموضوعية. وبيان مظاهر النظام الكلي للوحدة الموضوعية داخل السور الواحدة عند الدكتور دراز.

0وقبل البدء في عرض تلك الأسس يجب الإشارة أن تلك الأسس التي أقرها الدكتور دراز تعد استكمالا لرؤيته التي أوضحناها في المطالب السابقة، وكذلك مناهج المفسرين في التعامل مع الوحدة الموضوعية هي بمثابة المشكلات التي أوضحها الدكتور دراز والتي

(1) مدخل إلي القرآن الكريم، د . محمد عبدالله دراز –131.

أوقعت الباحثين في خطأ الحكم على الوحدة الموضوعية وإنكارهم لها، في حين أنهم لو تفادوها لحدثت قناعتهم وتمكنهم من تطبيق الوحدة الموضوعية داخل السورة.

أولا: الأسس التي يجب أن يتبعها الباحثون عند نظرتهم للسورة القرآنية كي يتمكنوا من تطبيق الوحدة الموضوعية بداخلها واستخلاص الموضوع العام الذي تدور حوله:

1- ضرورة إحكام النظر في السورة كلها يقول: "بيد أننا قبل أن نأخذ فيما قصدنا إليه نحب أن نقول "كلمة" ساق الحديث إليها: وهي أن السياسة الرشيدة في دراسة النسق القرآني تقضي بأن يكون هذا النحو من الدرس هو الخطوة الأولى فيه، فلا يتقدم الناظر إلى البحث في الصلات الموضعية بين جزء جزء منه –وهي تلك الصلات المبثوثة في مثاني الآيات ومقاطعها– إلا بعد أن يحكم النظر في السورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون معينًا له على السير في تلك التفاصيل عن بينة؛ فقديمًا قال الأئمة: "إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة. وإنه لا غنى لتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية"[1].

وأكد هذا الأساس الشيخ سعيد حوى في تفسيره فيتحدث عن ضرورة النظرة الكلية فيقول: "أنها تخدم قضية الفهم للكثير من المعاني التي يدل عليها السياق، إن هذه النقطة التي هي في بعض جوانبها تميز هذا التفسير عن غيره لا تخدم فقط فيما ذكرناه بل تخدم في كثير من المعاني، ومحل هذه المعاني في البرهان على كثير من القضايا، كما أنها ترينا أن هذا القرآن من خلال سياق الآية بالنسبة لمجموع القرآن ومن خلال صلات السور بعضها ببعض، ومن خلال نواحٍ أخرى، يعطينا معاني لا نهاية لها ولا يمكن الإحاطة بها"[1].

(1) النبأ العظيم ، د. محمد عبدالله دراز –191.
(1) مقدمة الأساس في التفسير، سعيد حوى -27.

وأكد هذا الأساس الدكتور حجازي أيضا فيقول: "إن من يفرق النظر في الآيات على أنها منفصلة تماما عن غيرها ولم ينظر نظرة إجمالية عامة في السورة، وفي هدفها العام لم يحصل له إلا فهم ظواهر الألفاظ بحسب الوضع اللغوي فقط، لا بحسب المقصود الأعلى للمتكلم"[2].

2. البحث في الصلات الجزئية بين الآيات والقضايا ليس غاية وإنما وسيلة، فلو أصبح غاية كما فعل الباحثون ستؤدي بهم إلى الفهم الخاطئ بل وجور في الحكم على وجود تلك الوحدة.

يقول الدكتور دراز: "تعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بين الآيات حين يعكفون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاورة، غاضين أبصارهم عن هذا النظام الكلي الذي وقعت عليه السورة في جملتها، فكم يجلب هذا النظر القاصر لصاحبه من جور عن القصد، وكم ينأى به عن أروع نواحي الجمال في النظم؛ وهل يكون مثله في ذلك إلا كمثل امرئ عرضت عليه حلة موشية دقيقة الوشي ليتأمل نقوشها فجعل ينظر فيها خيطًا خيطًا ورقعة رقعة، لا يجاوزه ببصره موضع كفه، فلما رآها يتجاور فيها الخيط الأبيض والخيط الأسود وخيوط أخرى مختلف ألوانها اختلافًا قريبًا أو بعيدًا لم يجد فيها من حسن الجوار بين اللون واللون ما يروقه ويونقه، ولكنه لو مد بصره أبعد من ذلك إلى طرائف من نقوشها لرأى من حسن التشاكل بين الجملة والجملة، ما لم يره بين الواحد والواحد، ولتبين له من موقع كل لون في مجموعته بإزاء كل لون في المجموعة الأخرى ما لم يتبين له من قبل، حتى إذا ألقى على الحلة كلها نظرة جامعة تنتظم أطرافها وأوساطها بدا له من تناسق أشكالها ودقة صنعتها ما هو أبهى وأبهر، فكذلك ينبغي أن يصنع الناظر في تدبره لنظم السورة من سور القرآن"[1].

([2]) الوحدة الموضوعية، محمد محمود حجازي -43.

([1]) النبأ العظيم ، د . محمد عبدالله دراز –192\193.

ويجب التأكيد على أنه "ليست وحدة الموضوع في السورة تلك التي تقوم على مجرد المناسبة بين الآيات المختلفة الموضوعات"[2].

وأكد الأستاذ مصطفى ناصف هذا المعنى بقوله: "والحقيقة أن فكرة المناسبة بين آيات السورة هي الباعث الذي يحرك الآخذين بهذا التفسير الموضوعي"[3]؛ لأن المناسبات حلقة في بيان وحدة الموضوع بالسورة وخطوة أساسية في منهجية البحث فيها.

فالبحث في المناسبة بين الآيات ليس بالأمر السهل، وإنما عمل شاق ينتج من خلاله أهم الخطوات التي تساعد في بناء الوحدة وبيانها، فمن خلالها تصنع الأنسجة التي يبنى عليها الموضوع فتبرز أهم المحاور التي تدور حولها السورة، وكل هذا بالطبع يساعد الباحث للوصول إلى الموضوع العام أو المحوري الذي تقوم عليه السورة، يقول الإمام البقاعي رحمه الله والذي يُعَدُّ كتابه في المناسبات من البذور الأساسية والنواة الحقيقية لثمرة الوحدة الموضوعية: "فلا تظن أيها الناظر لكتابي هذا أن المناسبات كانت كذلك قبل الكشف عن قناعها والرفع لستورها، فرب آية أقمت في تأملها شهورا"[4].

ثانيا: مناهج المفسرين في التعامل مع الوحدة الموضوعية.

وقد حددها الدكتور دراز في ثلاثة مناهج، وهي:

- **التجاور**
- **التجانس**
- **الاقتضاب**

أما التجاور: وهو وقوف الدارسين على النظرة الجزئية بين الآيات المتجاورة أو القضايا المتجاورة داخل السورة الواحدة يقول الدكتور دراز: "وبهذا نعرف مبلغ الخطأ الذي يتعرض له الناظرون في المناسبات بين الآيات حين يعكفون على بحث تلك الصلات الجزئية بينها بنظر قريب إلى القضيتين أو القضايا المتجاورة"[1].

([2]) اتجاهات التجديد في تفسير القرآن، د. محمد إبراهيم شريف –520 ، دار السلام، ط: الأولى، 2008م.

([3]) انظر نظرية المعنى في النقد العربي (1965)/ مصطفى ناصف / –163\164، دار القلم مصر.

([4]) نظم الدرر في تناسب الآي والسور، البقاعي، البقاعي - 14\15.

([1]) النبأ العظيم ، د. محمد عبدالله دراز –192.

وأما التجانس: وهو وقوف الدارسين في علم المناسبات على محاولة الربط بين أجزاء السورة الواحدة على نحو من الاتحاد والتماثل والتداخل يقول الدكتور دراز: "وكلمة أخرى تمس إليها حاجة الباحث في النسق إذا أقبل على تلك المناسبات الموضوعية بين أجزاء السورة وهي أن يعلم أن الصلة بين الجزء والجزء ولا تعني اتحادهما أو تماثلهما أو تداخلهما أو ما إلى ذلك من الصلات الجنسية فحسب كما ظنه بعض الباحثين في المناسبات"[2].

وأما الاقتضاب: فهو أن الوحدة الموضوعية لا تكن داخل السورة متعددة القضايا وإنما تكون داخل القضية الواحدة بحيث لا يجمع السورة نسق كلي يجمع بين تلك الموضوعات، وقال بذلك الإمام العز بن عبد السلام يقول الدكتور دراز: "وكذلك نقل عن العز بن عبد السلام أن النظر في مناسبة الآي لا يحسن إلا في القضية التي نزلت على سبب واحد، أما إذا اختلفت الأسباب فالربط بينهما ضرب من التكلف، لا ن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة لا سباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض"[3]جريا على عادة العرب في قصائدهم المطولات والمعلقات ذات الأغراض المتعددة، التي لا يجمع فيها نسق كلي، كان الشعراء يحاولون التخلص من خلال بعض الأساليب البلاغية يقول د/ دراز: "وفريق آخر متى لم يجد هذه الصلة من وجه قريب أسرع إلى القول بأن في الموضع اقتضابا محضًا على عادة العرب في الاقتضاب"[3].

وقد ذكر الإمام السيوطي أن بعضهم قال: "إن الاقتضاب هو الأصل في القرآن كله، وهو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم"[4].

([2]) المصدر السابق -193.

([3]) المصدر السابق.

([4]) الإتقان ، للسيوطي ج374/3 ، دار نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1974م، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم.

وعقب الإمام السيوطي على هذا الزعم بأن القرآن: "فيه من التخلصات العجيبة ما يحير العقول.

وانظر إلى سورة الأعراف كيف ذكر فيها الأنبياء والقرون الماضية والأمم السالفة، ثم ذكر موسى إلا أن قص حكاية السبعين رجلاً ودعائه لهم ولسائر أمته بقوله: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ} وجوابه تعالى عنه، ثم تخلص بمناقب سيد المرسلين بعد تخلصه لا مته بقوله {قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ} من صفاتهم كيت وكيت، وهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي، وأخذ في صفاته الكريمة وفضائله.

وفي سورة الشعراء حكى قول إبراهيم: {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ} فتخلص منه إلى وصف المعاد بقوله {يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ} الخ"[1].

تعقب الدكتور دراز للمناهج الثلاثة الآنفة الذكر.

المنهج الأول: التجاور فيراه الدكتور دراز منهجًا قاصرًا عن النظام الكلي الذي وضعت عليه السورة في جملته، يقول الدكتور دراز: "فكم يجلب هذا النظر القاصر لصاحبه من جور عن القصد، وكم ينأى به عن أروع نواحي الجمال في النظم، وهل يكون مثله في ذلك إلا كمثل امرئ عرضت عليه حلة موشية دقيقة الوشي ليتأمل نقوشها فجعل ينظر فيها خيطا خيطا ورقعة رقعة لا يجاوزه ببصره موضوع كفه فلما رآها يتجاور فيها الخيط الأبيض والخيط الأسود وخيوط أخر مختلف ألوانها اختلافا قريبا أو بعيدا لم يجد فيها من حسن الجوار بين اللون واللون ما يروقه ويونقه، ولكنه لو مد بصره أبعد من ذلك إلى طرائف من نقوشها لرأي من حسن التشاكل بين الجملة والجملة مالم يره بين الواحد والواحد، ولتبين له من موقع كل لون في مجموعته بإزاء كل لون في المجموعة الأخرى مالم يتبين له من قبل.

(1) الإتقان ، للسيوطي ج374/3.

حتي إذا ألقي على الحلة كلها نظرة جامعة تنتظم أطرافها وأوساطها بدا له من تناسق أشكالها ودقة صنعتها ما هو أبهي وأبهر، فكذلك ينبغي أن يصنع الناظم في تدبره لنظم السورة من سور القرآن"[2].

المنهج الثاني: وهو التجانس ففيه ضرب من التكلف والتعسف حيث جرد القرآن من أولى خصائصه وهو عدم الاسترسال الذي يؤدي للملل، يقول الدكتور دراز: "فلو أن ذاهبا ذهب يمحو تلك الفوارق الطبيعية بين المعاني المختلفة التي ينتظمها القرآن في سورة منه إذًا لجرده من أولى خصائصه، وهي أنه لا يسترسل في الحديث عن الجنس الواحد استرسالا يرده إلى الإطالة المملة، كيف وهو الحديث الذي لا يمل؟"[1].

المنهج الثالث: وهو الاقتضاب، فقد تعقبه بالرفض لا نه يجرد القرآن من خاصته الثانية وهي الانتقال السلس بين موضوعاته المتعددة بانسيابية وسهولة، يقول الدكتور دراز: "ولو أنه من أجل المحافظة على استقلال هذه المعاني ذهب يفرقها ويقطع أرحامها، ويزيل التداعي المعنوي والنظمي من بينها، إذا لجرده من خاصته الأخرى، وهي أنه لا ينتقل في حديثه انتقالا طفريا يخرجه إلى حد المفارقات الصبيانية التي تجمع شتى الأحاديث على غير نظام. والتي لا تدع نفس السامع تستشرف إلى اختتام كلام وافتتاح كلام. كيف وهو القول الرصين المحكم؟"[2].

وقد رد على هذا المنهج (الاقتضاب) ومن قالوا به كالعز بن عبد السلام الذين لا يرون الوحدة الموضوعية داخل السورة المتعدد القضايا ككل، استدلالا بقصائد العرب ومعلقاتهم الطويلة المتعددة الأغراض، والتي لم يكن يجمعها نظام كلي مما كان يضطر الشعراء للاستعانة ببعض أساليب التخلص البلاغية مثل (ألا وإن، هذا ولكن، نعود، قلنا، وسنقول) [3].

(2) النبأ العظيم، د. محمد عبدالله دراز -193.
(1) النبأ العظيم، د. محمد عبدالله دراز -193.
(2) المصدر السابق -194.
(3) المصدر السابق - 188 .

فيقول: "بأن من أعظم صور إعجاز القرآن قبل الإعجاز البلاغي في مفرداته الأسلوبية، إعجاز من نوع آخر وهو إعجاز النظم الكلي للسورة بحيث تراها على تعدد موضوعاتها واختلاف أسبابها وطول زمان نزولها كالبيت الواحد الذي يضم كثيرا من الحجرات والأفنية إلا أنه لشدة الالتحام والتماسك لا تشعر بوجود الانقسام، وإنما هو النظام والالتحام دون أدنى تكلف ويقول أيضا في تفسيره الإذاعي: "وبعد فإن كان قد أعجبك من نظم القرآن هذا التطابق والتجاوب بين فاتحة السورة وخاتمتها ننظر فيما هو أعجب وأبدع، ذلك أنه حين عاد إلى هذه الشئون لم يعد إليها ابتسارا واقتضابا ولكنه تلطف في التمهيد لها وترفق في الاستدارة والتحول إليها..." [1].

ولعل هذا النوع من الإعجاز في النظام الكلي للسورة هو الذي أعجز العرب أن يجدوا فيه مطمعا للغمز فيه على الرغم من كونهم فرسان البلاغة وأساطينها يقول الدكتور دراز: "أجل إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعاني حشيت حشوا، وأوزاعا من المعاني جمعت عفوا، فإذا هي لو . تَدَبرَت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعبٌ وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد، قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام. كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حسن السياقة ولطف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعه وأثنائه، يريك المنفصل متصلا، والمختلف مؤتلفا. "[2].

(1) التفسير الإذاعي سورة المائدة حلقة 6.
(2) النبأ العظيم ، د. محمد عبدالله دراز-188.

ثالثا: مظاهر النظام الكلي للوحدة الموضوعية في السورة الواحدة عند الدكتور دراز.

لقد وعى الدكتور دراز الوحدة الموضوعية داخل السورة الواحدة واعتبرها كالعقدة التي يتطلب حلها في كل فن وصنعة.

ومن أجل ذلك فقد وضح لنا الدكتور دراز مظاهر النظام الكلي للقرآن الكريم الذي تتآلف منه الوحدة الموضوعية، وهذه المظاهر للنظام الكلي هي:

1. لجوء القرآن إلى الأساليب المختلفة اختلاف تضاد وفي نفس الوقت يتجاور بعضها إلى بعض يظهر من خلالها المحاسن والمساوئ.

2. لجوء القرآن إلى الأساليب المختلفة اختلاف تنوع لا تضاد وتكون بمثابة التنظير أو التفريع أو الاستشهاد أو الاستنباط أو التكميل أو الاحتراس.

3. لجوء القرآن إلى جعل معنيين مقترنين في الوقوع التاريخي أو تجاور شيئين في الوضع المكاني دعامة لاقترانهما في النظم.

4. في حالة عدم ارتباط بين المعنيين يلجأ القرآن إلى التلطف في الانتقال من موضوع إلى موضوع وذلك بحسن التخلص والتمهيد من ناحية أخرى بإمالة الصيغ التركيبية بحيث تتلاقى المعاني المتباعدة أو المتنافرة.

يقول الدكتور دراز: "وعلى هذه القاعدة ترى القرآن يعمد تارة إلى الأضداد يجاور بينها، فيخرج بذلك محاسنها ومساويها في أجلى مظاهرها، ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون في أحكامها بسوق بعضا إلى بعض مساق التنظير أو التفريع أو الاستشهاد أو الاستنباط، أو التكميل أو الاحتراس، إلى غير ذلك. وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي، أو تجاور شيئين في الوضع المكاني، دعامة لاقترانهما في النظم، فيحسبه الجاهل بأسباب النزول وطبيعة المكان خروجا وما هو بخروج وإنما هو إجابة لحاجات النفوس التي تتداعى فيها تلك المعاني، فإن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر بوجه من هذه الوجوه ونحوها، رأيته يتلطف في الانتقال من

أحدهما إلى الآخر إما بحسن التخلص والتمهيد، وإما بإمالة الصيغ التركيبة على وضع يتلاقى فيه المتباعدان، ويتصافح به المتناكران"[1].

ويجب الذكر أن ما سبق هو التأصيل النظري للوحدة الموضوعية داخل السورة الواحدة المتعددة القضايا وإقرار الدكتور دراز لها.

نتائج البحث:

ـ لقد نجح الدكتور دراز في بيان الوحدة الموضوعية في السورة الواحدة المتعددة القضايا، مثبتا وجود جذورها لدى القدماء.

ـ انطلق الدكتور دراز في منهج إثباته للوحدة الموضوعية من محورين رئيسين:

المحور الاول: التقعيد والتنظير للأسس العلمية النقلية العقلية التي تثبت وجود تلك الوحدة داخل السورة القرآنية، وماتحويه تلك الأسس من الأدلة المنطقية للرد على المنكرين لوجود الوحدة.

المحور الثاني: التطبيق العملي لإبراز تلك الوحدة، وقد بدأ في تطبيقه على سورتي الفاتحة والبقرة في كتابه النبأ العظيم؛ ثم بيان منهجه التطبيقي بوضوح وجلاء من خلال تفسيره الإذاعي للقرآن الكريم والذي تناول فيه أكثر من ثلث سور القرآن.

ـ اعتبر الدكتور دراز الوحدة الموضوعية بالسورة الواحدة هي زينة الثروة المعنوية بالقرآن الكريم وجمالها.

ـ يعد الدكتور دراز الوحدة الموضوعية داخل السورة الواحدة متعددة القضايا وجها من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

(1) النبأ العظيم، د. محمد عبدالله دراز –195.

المصادر المراجع

1. القرآن الكريم
2. أ بجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي، فريد الأنصاري ، ط الثانية 2010م، دار السلام.
3. البيان القرآني ،محمد رجب البيومي ، (1971م)مجمع البحوث الإسلامية ، دار النصر للطباعة ، مصر.
4. التفسير الإذاعي
5. اتجاهات التفسير في العصر الحديث ، د:عبد المجيد المحتسب، مكتبة النهضة الإسلامية، 1983م، ط الثالثة .
6. اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ،ط الأولى ـ 1986م
7. الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، دار نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1974م، ، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم .
8. التفسير الموضوعي في ظلال القرأن، ، تقديم فضيلة الشيخ حمد ابراهيم شقرة ،ت حسان عبد المنان ،عمان ، بيت الأفكار الدولية ،2002م.
9. التفسير الموضوعي في كفتي الميزان ،عبد الجليل عبد الرحيم ، 1992، دار النشر عمان.
10. التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه ، د:زياد الغاميين ، دار عمار،الطبعة الأولي2007 .
11. التفسير : نشاته ، تدرجه ، تطوره ، أمين الخولي، المكتبة اللبنانية بيروت.
12. تفسير الأساس ، سعيد حوى(المتوفى 1409 هـ) ، دار السلام – القاهرة، ط السادسة-1424 هـ.
13. التفسير البياني،بنت الشاطئ ، دار: دار المعارف – القاهرة، ط السابعة.
14. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الشيخ محمد رشيد رضا ،الهيئة العامة المصرية للكتاب ، سنة النشر: 1990 م.

15. تفسير القرطبي ، دار الكتب المصرية ـ القاهرة، ط 1964 م، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش.
16. تعليق الشيخ عبد الله دراز على كتاب الموافقات للشاطبي، المسألة الثالثة عشر ،1975م/ دار الفكر العربي مصر.
17. حصاد قلم،د. محمد عبدالله دراز ،ط2ـ2008م، دار القلم، ت أحمد مصطفى فضلية، مراجعة وتقديم ا.د عبد الستار فتح الله سعيد.
18. حول دستور الأخلاق في القرآن، د. محمد عبدالله دراز ، ط1ـ 2005م، دار القلم، إعداد .أحمد مصطفى فضلية ـ مراجعة وتقديم ـ ا.د : السيد محمد بدوي.
19. دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية ، د: محمد عبدالله دراز، ط6ـ2009م، دار القلم، ت.أحمد مصطفى فضلية، تقديم ا. د عبد العظيم المطعني.
20. دستور الأخلاق ، محمد عبدالله دراز ، مؤسسة الرسالة، ، ط11عام2005 تحقيق وتعريب وتعليق الدكتور عبد الصبور شاهين، مراجعة الدكتور محمد سيد بدوي.
21. رسالة دكتوراة ، العقيدة والأخلاق في فكر الدكتور دراز د: أبو بكر سعيد عبد الارضي القشيري،. ، الحضري للطباعة .
22. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني /شهاب الدين الألوسي ت 1270هـ ، الطبعة الأولى 1415هـ ، دار الكتب العلمية بيروت، ت :علي عبد الباري عطية.
23. زاد المسلم في الدين والحياة ، د. محمد عبدالله دراز ،ط2ـ 2008م ،دار القلم، جمع وإعداد الشيخ أحمد مصطفى فضلية، تقديم أ . د يوسف القرضاوي.
24. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ) ، دار الكتاب العربي . بيروت،ط الأولى . 1422 هـ ، ت: عبد الرزاق المهدي.
25. سيرة وفكر الإمام المجدد محمد عبدالله دراز ،مكتبة الإيمان للطباعة والنشر، ط1ـ2010م، إعداد الشيخ أحمد مصطفى فضلية ، تقديم أ .د أحمد العسال.
26. الصناعتين ، أبو هلال العسكري ت395هـ ، عام النشر 1419هـ، المكتبة العنصرية بيروت، ت :علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم.

27. الصوم تربية وجهاد ، د. محمد عبدالله دراز ، دار القلم، ط 3 .2007م، ، ت. أحمد مصطفى فضلية، تقديم فضيلة الشيخ :حسنين محمد مخلوف، مفتي الديار المصرية سابقا.
28. الظاهرة القرآنية ،مالك بن نبي ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، ط دار الفكر، ط العاشرة 2012م.
29. إعجاز القرآن ، الباقلاني ، دار المعارف ، ط الخامسة 1997م، ت السيد أحمد صقر.
30. إعجاز القرآن ،الرافعي، دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة الثامنة – 2005 م.
31. الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير، د. عبدالغفار عبد الرحيم، دار نشر الحلبي، لايوجد تاريخ طبع.
32. فتح القدير، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي المعروف بابن الهمام (المتوفى: 861هـ)، الناشر: دار الفكر، بدون طبعة وبدون تاريخ .
33. فصول في أصول التفسير ، مساعد بن سليمان الطيار، دار بن الجوزي للنشر، ط: الثانية، 1423هـ.
34. في ظلال القرآن ، سيد قطب، دار الشروق – بيروت– القاهرةالطبعة: السابعة عشر – 1412 هـ.
35. محمد عبدالله دراز دراسات وبحوث بأقلام تلامذته ومعاصريه ، دار القلم ، ط الأولى ـ 2007م ، تقديم د.على جمعة المفتي السابق، جمع وإعداد الشيخ أحمد مصطفي فضلية.
36. مدخل إلي القرآن الكريم ، محمد عبدالله دراز، ط5 ـ 2003م ، دار القلم.
37. مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور، عادل بن محمد أبو العلاء ، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط: العدد129 – 1425هـ.
38. مباحث في التفسير الموضوعي ، مصطفى مسلم ، دار القلم، ط الرابعة 2005م.
39. معالم في المنهج القرآني، طه جابر العلواني، دار السلام، ط الأولى 2010م.
40. مفاتيح الغيب ، فخر الدين الرازي ، ت606هـ، ط الثالثة 1420هـ، دار إحياء التراث العربي.
41. مناهل العرفان ، الزرقاني ، عيسى الحلبي ، ط : الثالثة.

42. الموافقات، الشاطبي ، دار ابن عفان الطبعة: ط الأولى م1997، ت. أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان.
43. المختار من كنوز السنة ، الدكتور محمد عبدالله دراز ، دار القلم ، ط2004.
44. المدخل إلي التفسير الموضوعي ، د.عبد الستار فتح الله سعيد، دار القلم ، ط الخامسة 2003م.
45. الميزان بين السنة والبدعة، د: محمد عبدالله دراز ، ط3-2020م، ت: أحمد مصطفى فضلية، تقديم الدكتور: محمد أحمد أبو سيد أحمد. مدرس الفقة العام . بكلية الشريعة والقانون بالقاهرة.
46. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم ، د. محمد عبدالله دراز ، ت .أحمد مصطفى فضلية ، تقديم أ.د عبد العظيم المطعني.
47. نظرية المعنى في النقد العربي، د. مصطفى ناصف ، دار القلم مصر (1965). (موقع مكتبة الملك فهد الوطنية).
48. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـ) ، دار الكتاب الإسلامي .
49. أوراق محمد عبد الله دراز في الإسلام والدعوة واللغة والادب والنقد والتاريخ والجغرافيا، مكتبة الإيمان، جمع وإعداد وتوثيق أحمد مصطفى فضليه، تقديم عبد العزيز إبراهيم المطعنى ،قراءة وتقديم أ: د خالد فهمي.
50. وثيابك فطهر ولباس التقوى ذلك خير ، د. محمد عبدالله دراز، ، ط دار الانصار- 1978هـ.
51. الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ، محمد محمود حجازي ، دار التفسير للنشر، ط 2، 2004م.
52. الوحدة الموضوعية في سورة يوسف ، د. محمد حسن باجوده ، نشر عام 1983م.
53. الوحي المحمدي، رشيد رضا ، دار الكتب العلمية – بيروت ،ط: الأولى، 1426 هـ - 2005 م.

الدوريات والمواقع.

1- بحث بعنوان(نظرية الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم من خلال كتاب الأساس في التفسيرلسعيد حوى)،الدكتورأحمد الشرقاوي موقع http://k-tb.com/book/Quraan0

2- مقال الوحدة الموضوعية في سور القرآن ، د.عبدالله شحاته ، مجلة الوعي الإسلامي السنة الثامنة عشر ربيع الاول 1402 العدد 207.